المبحث السادس
نظريّة العِلم، في المغرب الأقصى، في العصر الحديث

تقديم:

يُمكننا أن نقول، إنّ المغرب، ورث من العصر الوسيط، النظريّة الأندلسيّة، كما استقرّت عند ابن جُزيٍّ الكلبيّ الغرناطيّ، (-741هـ) التي كانت ترى في العلم، ما كان يراه الأصوليّون والمحدّثون معا.

فهاذا ابنُ جُزيٍّ الغرناطيّ، يُقسّمُ العلمَ إلى فرض عين وفرض كفاية. وهاذا القسمُ الثّاني: "الاشتغالُ به، أفضلُ من العبادات." [426]

ويعقدُ فصلاً في شروط العلم، ويقصدُ بها "ءاداب العلم". [427] ويقسّمُ العُلومَ إلى "عُلوم شرعيّة، وعُلوم هي ءالاتٌ للشّرعيّة، وعُلوم ليست بشرعيّة، ولا ءالاتٍ للشّرعيّة." [428]

وإذا كانت فضيلةُ العُلوم الشّرعيّة والآليّة، أمرًا مُقرّرا، فإنّ الصّنف الثّالث من العُلوم عنده، يحتاجُ في تقرير فضيلته، إلى معيار المنفعة والمضرّة. فلذالك تنقسمُ إلى أربعة أقسام.

1. ما ينفعُ ولا يضرّ، كالطّبّ. 2. ما يضرُّ ولا ينفع، كعُلوم الفلسفة، وعُلوم النّجوم. 3. ما يضرُّ وينفع، كالمنطق. 4. ما لا يضرُّ ولا ينفع، كعِلم الأنساب. [429]

إنّ هاذا التوجُّه السُّنّيّ لمالكيّ العامّ، الّذي هيمن على المغرب والأندلس، في نهاية العصر الوسيط، الّذي يُقصي الفلسفة وفروعها، أو يحذر منها، هو ما عمل اليوسيُّ على إعادة النّظر فيه، في العصر الحديث.

أ. أبو عَلِيّ، الحَسَنُ بنُ مَسعودٍ اليوسِيّ، (ـ1102هـ): "تـقنين" نظريّةِ العِلم": مَبادِئُ العُلوم، وأحكامُ العالِمِ والمُتعَلِّم، والمَبادِئُ العَشر، بين الفَلسَفةِ والمِلَّة:

كانَ القَرنُ الثّاني عشَرَ الهجرِيّ، وبِالضَّبط، عَصرُ السُّلطان المَولى إسماعيل، عَصرَ انطِلاقةٍ جَديدةٍ لِلعِلمِ في المَغربِ الأقصى. وقد تعاصَرَ فيهِ رَجُلانِ كتَبا، كُلٌّ على شاكِلَتِه، في نَظَرِيَّةِ العِلم، هُما: أبو زَيد، عَبدُ الرَّحمان الفاسِيّ، (ـ1096هـ) وأبو عَلِيّ، الحَسَنُ اليوسِيّ. وكِلاهُما ورِثَ الرَّصيدَ العِلمِيَّ المَشرِقِيَّ والأندلُسِيَّ لِنَظَرِيَّةِ العِلم.

وكانَ التَّوَجُّهُ الكَلامِيُّ الأشعَرِيّ، ومِن وَرائِهِ التَّوَجُّهُ الفَلسَفِيُّ القَديم، مِن وَراءِ سَعيِ اليوسِيِّ إلى "تقنين" العِلم. يَقولُ عَن كِتابه، "القانون":

"فَهاذا بِعَونِ اللَّه، قانونٌ يَشتَمِلُ عَلى أحكامِ العِلم، وأحكامِ العالِم، وأحكامِ المُتَعَلِّم، وما يَتَعَلَّقُ بشَيءٍ مِن ذالِك، عَلى وَجهِ الإشارَة، والاختِصارِ في العِبارَة"[430].

إنَّ هاذا القانون، هُوَ قانونٌ شَرعِيّ، مِن حَيثُ المَبدإ والتَّفاصيل. فَقَد عَقَدَ فَصلاً "في تَقسيمِ العِلم، بِحَسَبِ الحُكمِ الشَّرعِيّ"[431]، ولَهُ أدبِيّاتٌ هِيَ "ءادابُ العِلم"، عَلى طَريقَةِ المُحَدِّثينَ والأدباء، و"في بَيانِ فَضلِ العِلم، ومَنزِلَتِهِ مِنَ الشَّرَف"[432]، و"في بَيانِ العِلمِ النّافِع"[433].

إنَّ هاذا التَّوَجُّهَ المُزدَوَج، الكَلامِيَّ الأشعَرِيّ، والفَلسَفِيّ، جَعَلَ اليوسِيّ، يَخوضُ "في شَرحِ ماهِيَّةِ العِلم"[434]، وجَعَلَهُ يَعمَلُ عَلى تَقسيمِ العُلومِ مِن هاذا المَنظور، تَقسيمًا ثُنائِيًا. فَهِيَ عِندَه، إمّا يونانِيَّةٌ فَلسَفِيَّةٌ قَديمَة، وإما شَرعِيَّةٌ حادِثَةٌ إسلامِيَّة. يَقول:

"العُلوم، عَلى الجُملَة، إمّا قَديمَةٌ وإمّا حادِثَة. ولَئِن شِئت، قُلت: إمّا فَلسَفِيَّة، وإمّا مِلِّيَّة، أو إمّا قَديمَة، وإمّا إسلامِيَّة، وهُوَ أضبَط ..."[435]

وَقَد جَعَلَهُ هاذا التَوَجُّهُ العَقلانِيُّ السُّنِّيّ، يَصطدِمُ بتَصَوُّراتِ ابنِ جُزَيٍّ الكَلبيِّ الغرناطِيِّ، فعَمِلَ على نَقدِها ورَدِّها في وُضوح، ودونَ مُوارَبَة. يَقولُ عَنه:

"وقَولَتهُ في عُلومِ الفَلاسِفَة، إنَّها تَضُرُّ ولا تَنفَع، مَمنوع... فَما كانَ مِنها مُتَعَلِّقًا بِمنافِعَ دُنيَوِيَّة، ولَم يُماسَّ العَقائِد، ولا خاضَ في الإلاهِيّات، وذاكَ مُعظَمُها، فَهوَ كُلُّهُ نافِعٌ غَيرُ ضارّ..."[439]

ورَدَّ كَذالِكَ تَحريمَ السَّيوطِيِّ (-911هـ) في "النُّقايَة"، لِلفَلسَفَة، وَما يَتبَعُها مِنَ المَنطِق، رَدًّا واضِحا[440]. فكانَ مُستَميتًا في الدِّفاعِ عَن عُلومِ الأوائِل، في بيئَةٍ كانَت قَد رَكَنَت إلى تَصَوُّراتِ ابنِ الصَّلاح، (-643هـ) وابنِ جُزَيٍّ، (-741هـ) والسَّيوطِيِّ (-911هـ) رُكونا.

وبَعدَ أن قَسَّمَ اليوسِيُّ العُلومَ الفَلسَفِيَّةَ إلى قِسمَين، مَقصودَةٍ لِذاتِها، ولِغَيرِها، "جَرْيًا مَعَ عِباراتِهِم فيها"،[441] نَبَّهَ إلى المَوقِفِ الشَّرعِيِّ السّائِدِ مِنَ الفَلسَفَة، في جانِبِها غَيرِ المُحتاجِ إلَيه، أو "العُلومِ العَمَلِيَّة"، كَما يُسَمّيها، فقال:

"ثُمَّ الشَّريعَةَ المُطَهَّرَة، عَلى القَيِّمِ بِها أفضَلُ الصَّلاةِ والسَّلام، جاءَت بِما يُغني عَنِ العُلومِ العَمَلِيَّةِ المَذكورَةِ فَتُرِكَت. وذالِكَ أنَّ مَدارَها إمّا عَلى حِفظِ النَّفس... وإمّا عَلى العَقل... وإمّا المال... أو العِرض... أو النَّسَب... أو تَهذيبِ النَّفس، بِالتَّخلِيَةِ والتَّحلِيَة... وكَذا سِياسَةَ العِباد، بِالنُّبوءَةِ والخِلافَة".[442]

إنَّ هاذا التَّداخُلَ الحاصِلَ بَينَ مَقاصِدِ الفَلاسِفَة، ومَقاصِدِ الشَّريعَة، كانَ كافِيًا في نَظَرِيَّةِ العِلم، لِتَنحِيَةِ "العُلومِ العَمَلِيَّة"، إكتِفاءا بِالشَّريعَةِ ومَقاصِدِها:

"فَأسقَطَ المُتَأخِّرونَ هاذا القِسمَ مِن عُلومِ القُدَماء، إستِغناءا عَنه، واقتَصَروا عَلى الأقسامِ الباقِيَة، أعني العِلمَ الإلاهِيَّ والرِّياضِيَّ، والطَّبيعِيَّ والمَنطِقِيّ".[443]

وَلَمّا كانَتِ العُلومُ القَديمَة، أقدَمَ بِالضَّرورَةِ مِنَ العُلومِ الإسلامِيَّة الحادِثَة، فَقَد بَسَطَ القَولَ بَعضَ البَسطِ في العِلمِ الإلاهِيِّ،[444] وَالعِلمِ الرِّياضِيِّ،[445] (وَمِنهُ عُلومُ الهَندَسَة، كَعِلمِ المَناظِر، وَعِلمِ المَرايا، وَمَراكِزِ الأثقال، وَالمِساحَة، وَإنباطِ المِياه، وَجَرِّ الأثقال، وَعِلمِ البِنكامات، وَالآلاتِ الحَربِيَّة...)، وَعِلمِ الهَيئَة[446]، وَعِلمِ العَدَد[447]، وَعِلمِ الموسيقى[448]، فَذَكَّرَنا بِطاش كُبرى زادَة، في "مِفتاح السَّعادَة".

بَيدَ أنَّهُ مَرَّ مُرورَ الكِرام، عَلى العُلومِ الهَندَسِيَّة، لَمّا لم تَكُن هاذِهِ العُلومُ مِن شَأنِه، وَلا مِن شَأنِ عامَّةِ عُلَماءِ المَغرِبِ الأقصى. بَل أدرَجَ في العُلومِ الهَندَسِيَّة، وَهاذا غَريب، عِلمًا عاشِرا، سَمّاه: "عِلمَ الآلاتِ الرّوحانِيَّة، وَمَنفَعَتُهُ ارتِياضُ النَّفسِ بِالغَرائِب".[449]

ثُمَّ بَسَطَ القَولَ كَذالِك، في "العِلمِ الطَّبيعِيّ"،[450] وَأقسامِه، كَعِلمِ الطِّبّ،[451] وَعِلمِ البَيطَرَة[452]، وَعِلمِ الفِلاحَة[453]. بَيدَ أنَّهُ أدرَجَ ضِمنَ العِلمِ الطَّبيعِيّ، عِلمَ الفِراسَة،[454] وَعِلمَ التَّعبير،[455] وَعِلمَ النُّجوم،[456] وَعِلمَ السِّحر،[457] وَأطالَ القَولَ فيه، وَعِلمَ الطِّلَّسمات، وَعِلمَ السّيمِياء، وَعِلمَ الكيمِياء.[458] وَعَلَّلَ ذالِكَ التَّطويلَ بِالحاجَة، بِقَولِه:

"فأمّا القسم الأوّل، وهو العلمُ الإلاهيُّ والطّبّ، والمنطقُ والتوقيت، فقد شرحناه بعض الشّرح، وتعرّضنا للمُهمِّ منه، للحاجةِ إليه. ولم نكتفِ بكونِه مشروحًا في دواوين الملّة..." [459]

بيدَ أنّهُ عكسَ بتفكيره في "العِلم الطّبيعيّ"، عقليّةَ زمنِه، وما قبلَه، بإدراج علوم، كالفِراسةِ والطّلّسمات، في "العلمِ الطّبيعيّ"، وتعريفِه علمَ الكيمياء، بأنّه:

"علمٌ يُتوصّلُ بهِ إلى سلبِ الجواهرِ المعدنيّةِ خواصّها، وإعطائِه خواصّ جواهرَ أخرى، كجَعلِ الرّصاص مثلا، فِضّةً أو ذهبا. ومَنفعَتُهُ ظاهِرَة، إن ثبتت ... ولهُم تردُّدٌ في إمكانِ ذالِك، وبُعدُ الإمكانِ في الوُقوع." [460]

ذالِكَ أنّهُ إلى غايةِ 1102هـ - 1690م، تاريخ وفاةِ المؤلّف، كانَ تطوُّرُ العِلمِ الطّبيعيِّ في أوربّة، وتطوُّرُ مفهومِه، شيئًا أبعدَ ما يكونُ عن إحساس عُلماءِ المغربِ الأقصى، والدّولةِ العثمانيّة، بل سائر دار الإسلام به. فقد كانَ عُلماؤُنا في واد، والنّاسُ في وادٍ ءاخَر، وكانَ مُجتمعُنا في واد، والمُجتمعاتُ الأورُبّيّةُ في وادٍ ءاخَر.

ولاكِن ما حيلةُ أبي عليٍّ اليوسيّ؟ وهل كانَ في إمكانِه، أو إمكانِ مُعاصرِيه، التّفطُّنُ إلى ما يجري في العالَمِ القريبِ مِن حولِهم، وعواقِبِ ذالِك؟ أم كانَ هاذا مُتعذّرًا ومُستحيلا؟

ثمّ أفاضَ الشّيخُ أبو عليٍّ اليوسيُّ القولَ في عِلم المَنطِق [461] ، ولم يمُرَّ بِهِ مُرورَ الكِرام.

ثمّ قرّرَ "شرعيّة" أو "مقبوليّة" "العُلوم القديمة"، على الأقلّ، مُتحدّيًا تحدّيًا جريئًا بعضَ الاتّجاهاتِ السّنّيّة، الذّاهِبةِ إلى مُعاداةِ الفلسفةِ والمَنطِق، وتحريمِهما. قال:

"ولا بأسَ بجميعِها؛ فنحنُ لا نلتفِتُ إلى مَن يُحرِّمُ عِلمَ شيءٍ مِنها، فإنّ العِلمَ في نفسِه، هوَ غِذاءُ العقل، ونُزهةُ الرّوح، وصِفةُ الكَمال. وإنّما تختلِفُ

ثمراتُهُ في الشّرَف، بحَسَب الموضوع والغاية، وتختلفُ الأحكامُ بحَسَب النّيّة"[462].

وبناءا على هاذا التّوجّهِ السُّنّيّ العقلانيّ، دافعَ اليوسيّ، في معرض نقدِهِ لابن جُزَيٍ الغرناطيّ، دِفاعًا حارًّا عن المنطق[463]، قائلا:

"ثُمَّ لَو كانَ [المَنطِقُ] مَدخلاً لِلفلسفة، فقد علِمتَ أن لا حَرَجَ في الفلسفةِ نفسِها، فكَيفَ بما هُوَ مَدخَلٌ إلَيها"[464].

فمَثَّلَ أبو عَلِيٍّ اليوسِيُّ بِهاذا التّوجُّهِ النّقدِيّ، التّوجُّهَ السُّنّيَّ العقلانيّ المَغرِبِيَّ خَيرَ تمثيل.

وكما قسّمَ العُلومَ الفلسفِيّة، عُلومَ الأوائِلِ القَديمة، إلى قِسمَيْنِ اثنَيْن، قسّمَ العُلومَ الإسلامِيّةَ كَذالِك، إلى قِسمَين اثنَيْن. قال:

"وأمّا العُلومُ الإسلامِيّة، فمِنها المقصودُ لِذاتِه، وهُوَ أصولُ الدّينِ وفُروعُه، وهِي: الفِقه، ومِنهُ عِلمُ المَواريث، والتّصَوُّف.

ومِنهُ الوَسيلة، كَعِلمِ التّفسير، وعِلمِ الحَديث، وكَعِلمِ الحِساب، وعِلمِ التّوقيت، مِن عُلومِ الأوائِل.

ومِنهُ وَسيلَةُ الوَسيلَة، كَعِلمِ القِراءات، وعِلمِ الرّسم، وعِلمِ العَرَبِيّةِ بأنواعِه، وعِلمِ المَنطِق، ونَحوِه. وهِيَ كُلُّها، عَلى العُموم، إسلامِيّة، بمَعنى أنّها تُتَعاطى في مِلّةِ الإسلام، أو يُنتَفَعُ بها في دينِ الإسلام، إمّا مُباشَرَة، أو بواسِطة.

وهِيَ أيضًا شَرعِيّة كَذالِك"[465].

إنّ العُلومَ الإسلامِيّةَ الحادِثَة، مَقاصِدَ ووَسائِل، عُلومٌ شَرعِيّة، وعُلومٌ ءالِيّة، أو ءالَةٌ لِلشّرعِيّة، بِتَعبير ابنِ جُزَي، (-741هـ). لاكِنّها جَميعًا، حَسَبَ اليوسِيّ، عُلومٌ "شَرعِيّة"، "بمَعنى أنّها تُتَعاطى في مِلّةِ الإسلام، أو يُنتَفَعُ بها في دينِ الإسلام، إمّا مُباشَرَة، أو بواسِطة"[466].

فـتَفقدَ هذا الصنَفَ مِنَ العُلومِ، أيِ العُلومَ الآلِيَّة، مِن كُلِّ ما مِن شأنِهِ أن يَعمَلَ على تَحقيرِها أو رَفضِها.

بَيدَ أنَّ هاذِهِ العُلوم، ولَو أنَّها جَميعا شَرعِيَّة، فِي تَصوُّرِ اليوسِيِّ، فيها المُهِمُّ والأقَلُّ أهمِّيَّة. قال:

"والمُهِمُّ مِنها سِتَّة: عِلمُ أُصولِ الدِّينِ، وَعِلمُ الفِقه، وَعِلمُ التَّصوُّف، وَعِلمُ التَّفسير، وَعِلمُ الحَديث، وَعِلمُ أُصولِ الفِقه." [467]

إنَّ هاذِهِ العُلوم، هِيَ المُهِمَّة، مِن بَينِ العُلومِ الشَّرعِيَّةِ الخالِصَة. تَتلوها مِن عُلومِ الآلَة، "عُلومٌ مُهِمَّة" كَذالِك. قال:

"وَالمُستَعانُ بِهِ غَيرُ ذالِك. وَالمُهِمُّ مِنهُ في الجُملَةِ ثَمانِيَة: عِلمُ اللُّغَة، وَعِلمُ الإعراب، وَعِلمُ التَّصريف، وَعِلمُ المَعاني، وَعِلمُ البَيان، وَعِلمُ الطِّبّ، وَعِلمُ الحِساب، وَعِلمُ المَنطِق. فَهاذِهِ أربَعَةَ عَشَرَ عِلمًا." [468] وَهاكذا صارَ عِلمُ الطِّبِّ وَالحِسابِ وَالمَنطِق، مِن عُلومِ الآلَة، مِنَ "العُلومِ المُهِمَّة".

وَبِالرَّغمِ مِن بَسطِهِ القَول، في العُلومِ الشَّرعِيَّة، أكثَرَ مِن غَيرِها، فَهُوَ يَرى، كَالمُعتَذِر، أنَّهُ لَم يَعمَل عَلى شَرحِ هاذا "القِسمِ الرّابِع" مِنَ العُلوم:

"وَأمّا الرّابِع، وَهُوَ جَميعُ العُلومِ الشَّرعِيَّة، أصلاً وَفَرعا، ذاتًا وَعَرَضا، فَلَم نَشرَحها أيضا. بَل اقتَصَرنا عَلى الإشارَةِ وَالإجمال، لِأنَّها مَشروحَةٌ في دَواوينِها، وَلا مَزيدَ عَلَيها. وَديوانٌ واحِدٌ لا يَجمَعُها. فاعلَم. وَاللَّهُ المُستَعان" [469].

إنَّ هاذِهِ العُلوم، هِيَ ما يَجِبُ الوُقوفُ عِندَهُ وَقفَةً طَويلَة، لِأنَّها مُهِمَّة.

أمّا العُلومُ الأقَلُّ أهمِّيَّة، فَهِيَ "فُنون"، لا تَستَحِقُّ أو لا تَكاد، عَناءَ التَّطويل:

"وَإذ قَد فَرَغنا مِنَ العُلومِ المُهِمَّة... فَلنُشِر الآن، إلى ما بَقِيَ مِنَ الفُنونِ إشارَةً إجمالِيَّة." [470]

هاذِهِ العُلومُ هِي: عِلمُ القِراءَة،[471] وَعِلمُ الرَّسم،[472] وَعِلمُ الضَّبط،[473] وَعِلـ
السِّيَر،[474] وَعِلمُ المَغازي، وَعِلمُ الشَّمائِل، وَعُلومُ البَلاغَةِ نَفسُها. قال:

"وَمِنها ما يَتَعَلَّقُ بِعُلومِ البَلاغَة. وَهِيَ سِتَّة: عِلمُ البَديع، وَعِلمُ الميزان وَعِلمُ القافِيَة، وَعِلمُ الشِّعر، وَعِلمُ الكِتابَة، وَعِلمُ النَّقد".[475]

وَعُلومُ المُعجَمِ العَرَبيّ. قال:

"وَمِنها ما يَتَعَلَّقُ بِاللُّغَة، خُصوصا، وَهُوَ عِلمُ الغَريب"[476]. وَقَدِ اقتَضَبَ الكَلامَ فيها اقتِضابًا لا يُنتَظَرُ مِنه.

وَقَد يُعَبِّرُ اليوسِيُّ عَنِ العُلومِ الأقَلِّ أهَمِّيَّة، بِالعُلومِ المُعتَبَرَة. قال:

"بَقِيَ مِنَ العُلومِ المُعتَبَرَة: عِلمُ الأمثال، وَعِلمُ الحِكَم"[477].

وَقَد ألحَقَ اليوسِيّ بِهاذِهِ العُلوم، "المُهِمَّةِ وَالمُعتَبَرَة"، طائِفَةً أخرى مِنَ العُلوم، هِيَ أقرَبُ إلى العُلومِ الذَّيلِيَّة، أو الهامِشِيَّة، إذ:

"مِنها ما يَرجِعُ إلى الأخبار.."[478] كَعِلمِ أيّامِ العَرَب،[479] وَعِلمِ التّاريخ، وَعِلمِ القَصَص، وَعِلمِ الوَعظ،[480] وَ"عِلمِ البَطّالين"[481].

بَيدَ أنَّها مَعَ ذالِك، قَد تُقبَل، وَتَخرُجُ مِن ذَيلِيَّتِها أو هامِشِيَّتِها أحيانا. يَقول:

"وَهاذِهِ الأنواع، وَإن أغمَضنا فيها، [كذا] فَإنَّما ذالِكَ بِحَسَبِ غالِبِ حالِها وَحالِ مُتَعاطيها. وَإلاّ، فَكَثيرًا ما يُذكَرُ الشَّيءُ مِنها استِشهاداً أو استِبصارًا أو لِقَصدِ الإحماضِ في مَحالِّه، أو غَيرِ ذالِكَ مِن مَقاصِدِ العُقَلاء، فَيُقبَل، وَيَكون

نحو ممنوعٌ من أن تنخرط في سلك العلوم، كما ذكر في الفلسفيّات، عِلمُ الرّمل وعلمُ السِّحر، وعلمُ السيمياء".[482]

ثمّ ألحق بالعلوم غير المهمّة، وغير المُعتبرة، "عُلومَ العَرَب"، وَهِي: القيافة والعيافة والزّجر،[483] والكهانة[484]، وَعِلمُ الأنواء،[485]

وهذا القسمُ مِنَ العلوم، يرى أنّهُ اعتنى بهِ بعضَ الاعتِناء. يَقول:

"فقد ذكرنا أيضًا ما لا بُدَّ منه، لِأنّهُ نافِعٌ وَمُحتاجٌ إلَيهِ أحيانا. وَهُوَ لَم يُدوَّن كما ينبغي في المِلّة".[486]

إنَّ مبدأ النّفعِ والحاجة، وَهُوَ مبدأ مُهيمِنٌ على تَفكير اليوسِيِّ، جَعَلَهُ يتعقّبُ بعضَ التّصوُّراتِ الصوفيّةِ لِلعِلم، ويرُدُّها ردًّ لَطيفا. يَقول:

"وقالَ الشّيخُ زرّوقٌ في بعضِ كَلامِه: العِلمُ عِلمان: عِلمُ الأديان، وَعِلمُ الأبدان. وفي بعضِها: العُلومُ ثلاثة: عِلمُ الأديان، وَعِلمُ الأبدان، وَعِلمُ الجَنان؛ يعني التّصوّف.

قلت: وما سِواهُ فُضولٌ وَهذَيان.

ولعلّهُ يُريدُ ما هُوَ مَقصودٌ بالذّات. وَإلاّ، فَالعُلومُ كُلُّها لا تَخلو مِن نَفع، ولو بِالتّبَع".[487]

لكنَّ هذا الرّدَّ اللّطيف، لا يَعني رَفضَ التّصوُّراتِ الصّوفِيَّةِ لِلعِلم، فَهِيَ جُزءٌ مِن مَفهومِ "العِلمِ النّافع"[488]. بَل إنَّ بَعضَ التّقاسيمِ الصّوفِيَّةِ لِلعِلم، حاضِرٌ عِندَه وَمُعتَمَد. يَقول:

"وَالعُلومُ الّتي حَواها الكِتابُ وَالسُّنَّة، في الجُملَة، ثَمانِيَة:

عِلمُ اللِّسان، وَهُوَ العَرَبِيَّة، وَعِلمُ الأديان، وَهُوَ التّوحيد، وَعِلمُ الأركان، وَهُوَ الفِقه، وَعِلمُ الأبدان، وَهُوَ الطِّبّ، وَعِلمُ الحُسبان، وَهُوَ التّنجيم، وَعِلمُ

482 [illegible]

السُّلطان، وَهُوَ السِّياسَة، وَعِلمُ الإخوان، وَهُوَ عِلمُ المُعاشَرَة، وَعِلمُ الجِنان، وَهُوَ عِلمُ التَّصوُّف.

وَلِكُلٍّ مِنها مَشرَبٌ وَحَقيقَة، وَعلى المُريدِ فيها حَظٌّ مِنَ العُبودِيَّة، لا بُدَّ لَه مِنه، وَنَوعٌ مِنَ الفَتح، على حَسَبِ ما أُهِّلَ لَه.

وَإذا عَلِمتَ العُلومَ المُنَوَّرَة، فَقَد بانَت لَكَ العُلومُ المُكَدَّرَة". [489]

وَلَم يَكُن اليوسِيّ، في بَحثِهِ عَن "تَقنين" العِلم، بَعيدًا عَن نَظَرِيَّةِ المَبادِئ العَشر. بَل كانَت واضِحَةً عِندَه. يَقول، في كِتابِهِ "البُدور اللَّوامِع، في شَرح جَمع الجَوامِع"، لِابنِ السُّبكِيّ، في أصولِ الفِقه:

"وَاعلَم أنَّ الَّذي جَرَتِ العادَةُ بِذِكره، في المُقَدِّمات وَالمَبادِئ لِلعُلوم، عَشرَةُ أشياء. وَهِيَ: إسمُ العِلمِ وَرَسمُه، وَمَوضوعُهُ وَواضِعُه، وَغايَتُهُ وَمَسائِلُه، وَنِسبَتُهُ وَفَضيلَتُه، وَحُكمُهُ وَمَوادُّه". [490]

وَقَد فَسَّرَ هاذِهِ المَبادِئَ وَعَلَّلَ شَرعِيَّةَ نَظَرِيَّتِها قائِلا:

"وَلا شَكَّ أنَّ مَعرِفَةَ الاِسم، إنَّما هِيَ لِغَرَضِ التَّعبيرِ عَنه، وَذالِكَ أمرٌ سَهل. وَالتَّحصيلُ بِدونِهِ مُمكِن. وَكَذا مَعرِفَةُ الواضِع، إنَّما هِيَ لِمَزيدِ تَبَصُّر، أو استِفادَةِ شَرَفٍ ما، أو وَثاقَةٍ ما، بِسَبَبِه، أو نَحو ذالِك...

وَكَذا نِسبَتُهُ مِنَ العُلوم، في أنَّهُ كُلِّيٌّ أو جُزئِيّ؛ لا يَتَوَقَّفُ عَلَيهِ الأمر، وَهُوَ راجِعٌ إلى المَوضوع...

وَكَذا حُكمُه، وَإن كانَ مُتَأكِّدا، إذ لا يَحِلُّ لِامرِئٍ مُسلِمٍ أن يُقدِمَ عَلى أمر، حَتّى يَعلَمَ حُكمَ اللَّهِ فيه... وَكَذا فَضيلَتُه، فَإنَّها تابِعَةٌ لِغايَتِه، فَإنَّ شَرَفَ العِلم، بِشَرَفِ غايَتِهِ المَقصودَةِ مِنه. وَقَد يَكونُ لَهُ بِحَسَبِ المَوضوع أيضًا شَرَفٌ ما.

فَالمُتَأكِّدُ حينَئِذٍ مَعرِفَةُ اسمِ العِلم، وَمَوضوعِهِ وَغايَتِه، وَمَسائِلِهِ وَمَوادِّه. وَأوكَدُها الثَّلاثُ الأُوَل." [491]

وَهاذا ما مَهّدَ السَّبيلَ فيمَا بَعد، للشَّيخ أَبي عَبدِ اللّه، مُحمّدٍ الطّالِبِ ابن الحاجّ، لِلتَّوسُّعِ في المَبادِئ، حَيثُ تأثّر بهِ في أشياء، مِن جُملَتِها الإلحاحُ عَلى التّمييز بَينَ مُقدِّمَةِ العِلم ومُقدِّمةِ الكِتاب،[492] وتَنَزّدِ كُتُبِ العُلوم.[493]

ب. السُّلطانِ سَيِّدي مُحمَّدِ بنِ عَبدِ الله، (1171-1204هـ) ونَظريَّةُ العِلم: المَوقِفُ السُّلطانِيُّ الرَّسمِيّ، ونِهايَةُ الاجتِهاد.

لَم يَخلُ تاريخُ المَغربِ مِن سَلاطينَ عُلَماء، جَمعَ اللهُ لَهُم بَينَ سَطوَةِ الدَّولَة، وَالإقبالِ عَلى العِلم، تأليفًا أو مُشارَكَة. وَمِنهُم في العَصرِ العَلَويّ، المَولى مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الله، (1171-1204هـ) وَابنُهُ المَولى سُلَيمان. (1206-1238هـ) وَقَد عاشا بِالضَّبط، في العَصرِ السّابِقِ مُباشَرَة، لِلعَصرِ الّذي ظَهَرَ فيهِ كِتابُ "الأزهار الطَّيِّبَةِ النَّشر".

كانَ السُّلطانُ المَولى مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الله، عَلى خِلافِ عُلَماءِ عَصرِه، أَقرَبَ إلى عُلَماءِ أهلِ السُّنَّةِ مِن أهلِ الحَديث، مِنهُ إلى عُلَماءِ أهلِ السُّنَّةِ مِنَ الأشاعِرَة. وَكانَ لَهُ اشتِغالٌ بِالحَديثِ الشَّريف؛ أدّى بِهِ إلى أن يُؤلِّفَ فيهِ كُتُبًا مُتَعَدِّدَة.

لَم تَكُن لَهُ نَظرِيَّةٌ مُفَصَّلَةٌ في فِقهِ العِلم، كَما عِندَ اليوسِيِّ (-1102هـ) في زَمَنِ جَدِّه، المَولى إسماعِيل، أو كَما عِندَ ابنِ الحاجّ، (-1273هـ) في زَمَنِ حَفيدِه، المَولى عَبدِ الرَّحمان.

وَلاكِن، لَهُ ما يُشبِهُ مَلامِحَ نَظرِيَّةٍ في فِقهِ العُلوم. يَهُمُّنا مِنها مَوقِفُهُ العِلمِيّ، الَّذي هُوَ في واقِعِ الأمر، عَينُ مَوقِفِهِ الرَّسمِيُّ مِنَ العُلوم. وَلا نَشُكُّ في أنَّ مَنشورَهُ العِلمِيّ، المُعَبِّرَ عَن هاذا المَوقِف، الَّذي لَم يَسبِق لَهُ مَثيلٌ في تَفكيرِ سُلطانٍ مَغرِبيٍّ مِن قَبل، كانَت لَهُ عَواقِبُ تَفاعَلَت في صِياغَةِ نَظرِيَّةِ العِلمِ المَغرِبِيَّة، في زَمَنِه، وَبُعَيدَه.

وَقَدِ انقَسَمَتِ العُلومُ عِندَه، إلى عُلومٍ رَسمِيَّةٍ مَطلوبَة، فيها الشَّرعِيُّ وَالآلِيّ، وَعُلومٍ مَنبوذَةٍ مَنهِيٍّ عَنها.

1- العُلومُ الرَّسمِيَّةُ المَطلوبَة:

وَقَد جاءَ في هاذا المَنشور، في خُصوصِها:

"في المُدَرِّسينَ في مَساجِدِ فاس. فَإنّا أمَرناهُم ألا يُدَرِّسوا إلاّ كِتابَ اللهِ تَعالى، بِتَفسيره، وَكِتابَ دَلائِلِ الخَيرات ...

وَمِن كُتُبِ الحَديث، المَسانيد، وَالكُتُبَ المُستَخرَجَةَ مِنها، وَالبُخاريَّ وَمُسلِمًا وَغَيرَها مِنَ الكُتُبِ الصِّحاح.

وَمِن كُتُبِ الفِقه، المُدَوَّنَةَ وَالبَيانَ وَالتَّحصيل، وَمُقَدِّمَةَ ابن رُشد، وَالجَواهِرَ لابنِ شاش، وَالنَّوادِرَ وَالرِّسالَة، لابنِ أبي زَيد، وَغَيرَ ذالِكَ مِن كُتُبِ الأقدَمين.

وَمَن أرادَ تَدريسَ مُختَصَرَ خَليل، فَإنَّما يُدَرِّسُهُ بِشَرح بَهرامَ الكَبير، وَالمَوّاقَ وَالحَطّاب، وَالشَّيخ عَلِيٍّ الأجهوريّ، وَالخُرَشِيِّ الكَبير، لا غَير.

فَهاذِهِ الشُّروحُ الخَمسَة، بِها يُدَرَّسُ خَليل، مَقصورًا عَلَيها ...وَما عَداها مِنَ الشُّروح كُلِّها، يُنبَذ، وَلا يُدَرَّسُ بِه."[494]

إنَّ بَرنامَجَ العُلومِ الشَّرعِيَّة، يَتَصَدَّرُ اهتِماماتِ السُّلطان، أميرِ المُؤمِنينَ العَلَويّ، وَلَهُ الأولَوِيَّةُ عَلى العُلومِ الآلِيَّة. وَهِيَ عِندَهُ ثَلاثَة: التَّفسيرُ وَالحَديث، ثُمَّ الفِقهُ المالِكِيّ.

تَأتي بَعدَهُ في الأهَمِّيَّة، عُلومُ الآلَة:

"وَكَذالِكَ قِراءَةُ سيرَةِ المُصطَفى، (ص)، كَالكَلاعِيِّ وَابن سَيِّدِ النّاس اليَعمُريّ.

وَكَذا كُتُبُ النَّحو، كَالتَّسهيلِ وَالألفِيَّة، وَغَيرُها مِن كُتُبِ هاذا الفَنّ.

وَالبَيان، بِالإيضاح وَالمُطَوَّل.

وَكُتُبُ التَّصريف.

وَديوانُ الشُّعَراءِ السِّتّ، وَمَقاماتُ الحَريريّ.

والقاموس ولسان العرب، وأمثالهما، مما يعين على فهم كلام العرب، باعتبارها وسيلة إلى فهم كتاب الله، وحديث رسول الله، (ص). وناهيك بها سنية![495]

وتضم علوم الآلة عنده، علوم السيرة والنحو والصرف والبلاغة. ويضاف إليها الأدب والمعجم.

ويمكن أن يلحق بالعلوم المطلوبة الرسمية، الشرعية والآلية المطلوبة، شيء ضئيل من علم الكلام، في شكله التعميمي، الموجه لعامة العامة من الناس:

"ومن أراد علم الكلام، فعقيدة ابن أبي زيد ...كافية شافية" يستغني بها جميع المسلمين."[496]

2- العلوم المنبوذة:

تضم العلوم المنبوذة، المنهي عنها، جملة علوم عقلية وروحية، شرعية وعالية. وهاذه العلوم، فيها الأصول والكلام والمنطق، والفلسفة، والتصوف الفلسفي. يضاف إليه الأدب القصصي الديني، ذو النزعة العامية:

"ومن أراد قراءة علم الأصول، فإنه أمر قد فرغ منه، ودواوين الفقه قد دونت، ولم يبق اجتهاد.

والطلبة الموجودون في الوقت، كل من أراد منهم أن يتعاطى علم الأصول، فإني أقول فيه: أراد أن يتزبب، قبل أن يتحصرم".[497]

ومع هاذا الإخمال الرسمي لعلم الأصول، فإن حاله، مع هاذا، أفضل من باقي العلوم العقلية والفلسفية والصوفية. فعلى الأقل، هو علم منبوذ؛ لا عقوبة على تعاطيه في المساجد.

أما العلوم المنبوذة الأخرى، فلم يبق لها مجال عمومي، وكان عليها أن تتوارى عن الأنظار، في القرويين وغيرها من قواعد البلدان، وكان على العلماء المخالفين، أن ينتظروا تعجيل العقوبة الرسمية:

"وَمَن أرادَ أن يَخوضَ في عِلمِ الكَلامِ وَالمَنطِقِ، وَعُلومِ الفَلاسِفَةِ، وَكُتُبِ غُلاةِ الصوفِيَّةِ، وَكُتُبِ القَصَصِ، فَليَتَعاطَ ذالِكَ في دارِه، مَعَ أصحابِه، الَّذينَ لا يَدرونَ بِأنَّهُم لا يَدرون.

وَمَن تَعاطى ما ذَكَرنا في المَساجِد، وَنالَتهُ عُقوبَةٌ، فَلا يَلومُ إلاّ نَفسَه." [498]

وَكانَ عَلى شَيخِ الجَماعَةِ بِفاس، التّاوديّ ابن سودَة، (-1209هـ) أن يُنَفِّذَ الأمرَ السُّلطانِيَ، "فَيَكونَ عَمَلُهُ عَلى ما في هاذا الكُنّاش" [499] المُؤَرَّخ بِسَنَةِ 1203هـ، أي سَنَةً واحِدَة، قَبلَ وَفاةِ السُّلطان. [500]

3- العُلومُ الغائِبَة:

وَأمّا العُلومُ الرِّياضِيَّةُ وَالطَّبيعِيَّة، فَغائِبَةٌ في هاذا المَنشور السُّلطانِيّ تَماما، وَلا مَجالَ لِلتَّفكير فيها، إلاّ ما يُستَثنى لِأسبابٍ دينِيَّة:

"وَكَذالِكَ الفُقَهاءُ الَّذينَ يَقرَأونَ الأسطُرلابَ وَعِلمَ الحِساب، فَيَأخُذونَ حَظَّهُم مِنَ الأحباس، لِما في ذالِكَ مِنَ المَنفَعَةِ العَظيمَة، وَالفائِدَةِ الكَبيرَة، لِأوقاتِ الصَّلاةِ وَالميراث." [501]

لا نَدري بِالضَّبط، مِقدارَ استيعابِ المُجتَمَعِ المَغربيِّ لِتَصَوُّراتِ السُّلطان العِلمِيَّة، وَأوامِرِهِ وَنَواهيه، وَانضِباطِهِ لَها، وَما أحدَثَهُ المَنشورُ مِن رَدِّ فِعل.

وَلاكِنَّ المُؤَكَّد، أنَّ حَرَكَةَ العِلم، عَلى الأنموذَجِ القَديم، إستَمَرَّت مُتَجاهِلَةً أمرَ السُّلطان، بِدَليلِ كِتاباتِ الطَّرُنباطِيِّ الفاسِيِّ، (-1214هـ)، وَابنِ عَجيبَةَ الحَوزِيِّ التِّطوانِيّ، (-1224هـ) وَأبي الرَّبيع، سُلَيمانَ الحَوّات، (-1231هـ) ثُمَّ ابنِ الحاجّ، صاحِبِ "الأزهار الطَّيِّبَةِ النَّشر"، (-1273هـ)، بَعدَهُما.

وَلاكِنَّ المُؤَكَّدَ أيضا، أنَّ المَغربَ الأقصى، وَما حَولَهُ مِن أقطار تَتَّخِذُهُ مَرجِعًا عِلمِيًّا لَها، في شَمالِ إفريقِيا وَالصَّحراء، عاصَرَ الثَّورَةَ الفَرَنسِيَّة، وَما أعقَبَها مِن تَحَوُّلاتٍ دُوَلِيَّة، فِكرِيَّةٍ وَعِلمِيَّةٍ وَتاريخِيَّةٍ كَبيرَة، بِبابِ اجتِهادٍ مُقفَل، وَعُلومٍ رِياضِيَّةٍ وَطَبيعِيَّةٍ غائِبَةٍ عَلى الإطلاق تَقريبا، في وَقتٍ كانَ فيه، في أمَسِّ الحاجَةِ إلَيها، لِيُواجِهَ الحَضارَةَ الغَربِيَّةَ الزّاحِفَة.

إنَّ هاذِهِ الحالَةَ العِلميَّةَ الشاذَّةَ، الخارِجَةَ عَنِ التاريخِ، حَتى الإسلامِيِّ مِنه، قَد أدركَ عُقمَها بالتَّدريجِ، بَعدَ سَبعينَ سَنةً، أو يَزيدونَ، السُّلطانُ، سيِّدي مُحَمَّدُ بنُ عَبدِ الرَّحمانِ، فأدخَلَ المَطبَعَةَ الحَجَريَّةَ إلى مِكناسَ ثُمَّ فاس، بَعدَ حَربِ تِطوان، ثُمَّ بَعثَ أفرادًا مِنَ النَّاسِ إلى مِصر، لِدراسَةِ الطِّبِّ وغَيره[502].

ثُمَّ أدركَ ذالِكَ ابنُهُ المَولى الحَسَن، الَّذي سَعى إلى بَعثِ البَعثاتِ الدِّراسِيَّةِ إلى أوروبَّة، لِدِراسَةِ العُلومِ الهَندَسِيَّةِ والعَسكَريَّة،[503] وإن لَم يَسَعْ أحَدٌ مِنهُما إلى فَتحِ المَدارِسِ في العُلومِ الطِّبِّيَّةِ والهَندَسِيَّةِ والعَسكَريَّةِ في المَغرِب، بالمَعنى الدَّقيقِ لِلكَلِمَة، كَما فَعَلَ مُحَمَّدُ عَلِيٍّ باشا، ثُمَّ حَفيدُه، إسماعيلُ باشا، في مِصر،[504] أو مُحَمَّدُ الصادِقُ باشا باي، في تونُس، أو السُّلطانُ عَبدُ الحَميد، في الدَّولَةِ العُثمانيَّة،[505] أو اليابان، عَلى عَهدِ الإنبراطورِ ميجي، في نَفسِ العَصر.

ت. مُحَمَّدِ بن مَسعودٍ الطَّرُنباطِيِّ الفاسِيِّ، (1214هـ) وسُنِّيَّةُ كُلِّ العُلوم:

لا شَكَّ عِندَنا في أنَّ مَجهودَ الطَّرُنباطِيِّ الفاسِيِّ، (1214هـ) في نَظَريَّةِ العِلم، مُنصَبٌّ قَبلَ كُلِّ شَيءٍ، في التَّوَجُّهِ العامِّ لِلمُحَدِّثينَ والفُقَهاءِ والأُدَباء، أي في "ءادابِ العِلم"، أو في "فَضائِلِ العِلم". ذالِكَ أنَّ كِتابَهُ "في شَرَفِ العِلمِ وما يَتَعَلَّقُ بِهِ مِنَ الأحكام"، من حَيثُ المَبدَإ. يُصَرِّحُ بِذالِكَ في طالِعَةِ كِتابِه، فيَقول:

"وبَعد، فَإنَّ بَعضَ الأحِبَّةِ ... طَلَبَ مِنِّي أن أجمَعَ لَهُ شَيئًا مِن فَضائِلِ العِلمِ والعُلَماء، لِتَنبَعِثَ النُّفوسُ إلى طَلَبِهِ وتَحصيلِه"[506].

بَيدَ أنَّ تأثيرَ اليوسِيِّ في تَوَجُّهِه، واضِحٌ في الجانِبِ النَّظَرِيِّ فَقَط. فَغايَةُ العِلمِ عِندَهُ الوُصولُ إلى الحَقِّ، إذ هُوَ المَقصود، والعُلومُ وَسائِلُه. وهُوَ سُنَّةُ الصَّحابَة، فَلا سَبيلَ إلى تَحريمِ شَيءٍ مِنَ العُلوم، أو تَبديعِها، ولَو كانَ هاذا الشَّيءُ هُوَ المَنطِقَ وعِلمَ الكَلام، وهُما أكثَرُ ما كانَ يُقلِقُ طائِفَةَ "أهلِ الحَديثِ" مِنَ العُلوم، بَعدَ الفَلسَفَة. يَقول:

"...فَإذا فَهِمتَ كُلَّ هاذا، عَلِمتَ أنَّ التَّوَصُّلَ إلى الحَقِّ، بِكُلِّ ما أمكَنَ، سُنَّةٌ فَعَلَها كُلٌّ مِنَ الخُلَفاءِ ...بَل وكُلُّ الصَّحابَة، فَلا يَخطُر بِبالِكَ وَجهٌ لِتَحريمِ شَيءٍ

مِن هاذِهِ العُلوم، ولا أن يُقالَ فيهِ إنَّـهُ مَذموم، إذ هِيَ كُلُّـها وَسائِلُ إلى المَقصود ... فَمَن حَرَّمَ بَعضَها، فَلْيُحَرِّم جَميعَها؛ وَإلاّ، فَمِن أينَ التَّخصيص؟! ...

فَإن قُلت: إنَّ الكَلامَ وَالمَنطِقَ مُبتَدَعان، وَكُلُّ بِدعَةٍ تُجتَنَب، قُلت: لا نُسَلِّمُ أنَّ كُلَّ بِدعَةٍ تُجتَنَب، إذ مِنها ما يُستَحسَن.

وَلَو سَلَّمناه، فَغَيرُهُما مِنَ العُلوم، كَالحِساب وَالطِّبّ، وَالتَّنجيم وَصِناعَةِ الأُصول، وَالحَديثِ وَالأدَب، وَنَحوِها، مُبتَدَع..." [507]

إنَّ جُرأَةَ الطُّرُنباطِيِّ الفاسِيِّ هاذِه، في تَقرير إباحَةِ كُلِّ العُلوم، وَسُنِّيَّتِها، وَإن كانَ قَد سَكَتَ عَنِ الفَلسَفَة، وَسَعَةَ أُفُقِه، جَرَّتهُ إلى القَولِ بِتَسوِيَةِ العُلوم، بَدَلاً مِن تَفاضُلِها، وَذالِكَ بِحُجَّةٍ دينِيَّة. فَلَيسَ في العِلم عِندَهُ عِلمٌ أشرَفُ مِن عِلمٍ وَأولى:

"وَفَصلُ الخِطاب، أنَّ كُلَّ عِلمٍ أُريدَ بِهِ وَجهُ اللَّه، وَقَرَّ صاحِبُهُ فيهِ بِأمرِ اللَّه، فَهُوَ ناج، إن شاءَ اللَّه" [508].

كَما جَرَّتهُ إلى القَولِ بِأولَوِيَّةِ العِلمِ عَلى التَّصَوُّف. يَقولُ ناصِحًا طالِبَ العِلم:

"وَدَع عَنكَ كُلَّ ما هُوَ مَندوب، كَأخذِ السُّبحَةِ لِلتَّسبيح وَالذِّكر، وَغَيرِ ذالِك، فَلا مَحصولَ لِشَيءٍ مِن ذالِكَ مَعَ تَركِ الواجِبات، وَاقتِحامِ المُحَرَّمات" [509].

ث. إبن عجيبة، (-1224هـ): العِلمُ النّافِع، وَتَركُ العِلم، وَاستِمرارُ اليوسِيَّة:

لَم يَكُن ابنُ عَجيبَة، الحَوزِيُّ ثُمَّ التِّطوانِيّ، (-1224هـ) صاحِبَ اشتِغال بِالعُلوم الشَّرعِيَّةِ تَأليفًا وَتَدريسا، حَتّى يَفرَغَ لِكِتابَةِ كِتابٍ في نَظَرِيَّةِ العِلم، كَما فَعَلَهُ مِن قَبلُ اليوسِيّ، وَمِن بَعدُ ابنُ الحاجّ، بَعدَ أن تَرَكَها طَوعًا إلى التَّصَوُّف الدَّرقاوِيّ.

وَإنَّما كَتَبَ عَنها بَعدَ تَمَكُّنِهِ في طَريقِ القَوم وَالتَّجريد، وَأرادَ أن يَكتُبَ "فَهرَسَة" تَكونُ بِمَثابَةِ رُزنامَةٍ لِسيرَتِه، وَلا سِيَما قِسمِها الصّوفِيّ؛ يَبسُطُ فيها

---

507 [illegible]

تاريخه، ويُدافعُ فيها عن نفسه، ائتساءا بمَن فعَلَ ذالكَ قبلَه، كالشَّعرانيِّ والسيوطيِّ.

ينطلقُ التَّصورُ الصوفيُّ لابن عجيبة لِلعلم، من تقسيمٍ ثُنائيٍّ لَه، على أساس منفعتِهِ الأخرويَّة، لا الدُّنيويَّة.

يقولُ في شرحِهِ لِحِكَمِ ابنِ عطاءِ اللَّهِ الإسكندريِّ:

"العِلمُ النافع، هُوَ الَّذي ينبسِطُ في الصَّدرِ شُعاعُه، وينكشِفُ بهِ عن القلبِ قِناعُه".

قلت: العلمُ النافع، هُوَ عِلمُ القلوب. ومَرجِعُهُ إلى تصفيةِ القُلوبِ مِنَ الرَّذائل، وتَحليَتِها بالفضائِل". [510]

وبذالكَ ينحصرُ عِندَهُ العِلمُ النَّافعُ في عِلمِ التَّصوُّف، الَّذي يقومُ بِـ" تصفيةِ القُلوبِ مِنَ الرَّذائل، وتحليَتِها بالفضائِل". [511]

بيدَ أنَّ تأثيرَ اليوسيَّةِ الطَّرنباطيَّةِ في تصوُّرِ ابن عجيبة، كانَ كبيراً جدّاً، فعِندَهُ أنَّه:

"لا يُلتفَتُ إلى مَن يُحرِّمُ عُلومَ الفلسفةِ والمنطِقِ مثلا، فإنَّ جميعَ الوسائِل، تُعتبرُ مقاصِدُها. فمَن تعلَّمَ عِلمًا لِيتوصَّلَ بهِ إلى واجبٍ أو مندوبٍ أو مُباح، وجَبَ تعلُّمُه، أو نُدِب، أو أبيح..." [512].

ولَم يتحفَّظْ إلا على العِلمِ الإلاهيِّ مِن عُلومِ الفلسفة. يقول:

"لا على ما يعتقِدُهُ الفلسفيّونَ [في العِلمِ الإلاهيِّ]، أبعدَهُمُ اللَّه." [513].

وهُوَ لا يكتُمُ استِمدادَهُ مِنَ اليوسيِّ وتأثُّرَهُ الشَّديدَ بِه. يقولُ مثلا:

"والعِلمُ بالشَّيء، خيرٌ مِنَ الجهلِ بِه، فإنَّ العِلمَ غِذاءُ العقل، ونُزهةُ الرّوح، وصِفةُ الكمال. وإنَّما تختلِفُ الثَّمرات. قالَهُ الشَّيخُ اليوسيّ." [514]

إنَّ هاذا التأثيرَ، جعَلهُ يستحضِرُ العُلومَ كُلّها ويَتصوَّرُها على طريقةِ اليوسيِّ، مِن عُلومٍ شرعيَّةٍ وفلسفيَّة، وبألفاظِهِ أيضاً على وجهِ التقريب. يقول:

"وإذا أضيفَ العِلمُ الطَّبيعِيُّ إلى الرِّياضِيِّ، يُسمَّى الفلسفة. فالفلسفةُ مُركَّبةٌ مِنَ العِلمِ الرِّياضِيِّ بأنواعِه، والعِلمِ الطَّبيعِيِّ ... فإذا أضيفَتِ الهندسةُ والحِساب، إلى المنطِق، فهِيَ التَّعاليم ...

فهاذِهِ عُلومُ الأقدمين، على الإجمال. أخذَ المُسلِمونَ مِنها ما عمَّت منفعَتُه، وعظمَت، كالإلاهِيِّ والمنطِقِ والحِساب، والطِّبِّ والتَّفسير، وما يُحتاجُ إليهِ مِن عِلمِ الهيئَة، ونحوِ ذالِكَ مِنَ المُهِمّ.

والأكثَرُ مِنها متروكٌ اليَوم، إما لِعَدَمِ الحاجَةِ إليه، أو لِقُصورِ الهِمَمِ عنه" [515]

وعلى طريقةِ اليوسِيِّ كذالِك، في عدَمِ إهمالِ التَّقسيمِ الصوفِيِّ لِلعُلوم، سارَ ابنُ عَجيبَة، فذكَرَ عُلومَ الظَّاهِرِ والباطِنِ الَّتي حصَّلَها. يقول:

"ذِكرُ ما حصَّلناهُ مِنَ العُلومِ الظَّاهِرَةِ والباطِنَة:

إعلَم أنَّ أصولَ العُلوم، أربعَةُ عُلوم. ومِنها تتفرَّعُ سائِرُ العُلوم: عِلمُ الأذهان، وعِلمُ اللِّسان، وعِلمُ الأبدان، وعِلمُ الأديان، لأنَّ العِلمَ إمّا أن يَرجِعَ إلى الأذهان، كالمنطِقِ والحِساب، وهِيَ التَّعاليم، أو يرجِعَ إلى اللِّسان، كالنَّحوِ والشِّعر، وهِيَ الأدبِيّات، أو إلى الأبدان، كالطِّبِّ والتَّشريح، أو إلى الأديانِ ظاهِراً وباطِنا، كالفِقهِ والتَّصوُّف، وعِلمِ الكَلام." [516]

ج. أبو الرَّبيع، سُلَيمانُ الحَوّاتُ الشَّفشاوِنِيِّ. (-1231هـ): عُلومُ الفُحول، مقاصِدَ ووَسائِل:

لا شكَّ في أنَّ مَجهودَ الفاسِيِّ واليوسِيِّ، في تأصيلِ وترسيخِ نظريَّةِ العِلمِ بالمغرِبِ الأقصى، كانَ لهُ تأثيرٌ فيمَن جاءَ بعدَهُ مِنَ العُلَماء، ولَو في غيرِ المُختصّينَ في نظريَّةِ العِلم.

هاكذا نجِدُ أبا الرَّبيع، سُلَيمانَ الحَوّاتَ الشَّفشاوِنِيَّ، (-1231هـ)، في معرِضِ استِعراضِ المَناقِبِ العِلميَّةِ لِشَيخِه، شَيخِ الجَماعَة، التّاوُدِيِّ ابنِ سودَة،

(-1209هـ)، يذكُرُ العُلومَ الَّتي قرَأها، وكانَ لهُ فيها سَهمٌ مُصيب، ويُفصِّلُ في أمرِها تَفصيلاً يُذكِّرُ بأهلِ نَظريَّةِ العِلم، أو موضوعاتِ العُلوم. وقَدِ استَعرَضَ هاذِهِ العُلومَ استِعراضًا مُختَصرًا ينقُصُهُ التَّرتيب، فكَأنَّهُ كانَ يَكتُبُ مِن فَيضِ الخاطِر.

وَهاذِهِ العُلوم، هِيَ: التَّفسير [517] وَالحَديث[518]، وَالفِقه[519]، وَأصولُ الفِقه[520]، وَالكَلام[521]، وَالتَّصَوُّف[522]، وَالحِساب، [523] وَالفَرائِض[524]، وَالمَنطِق[525]، وَالنحو، [526] وَاللُّغَة[527]، وَالعَروض[528]، وَالأدَب[529].

وَقَد سَمَّى كُلَّ هاذِهِ العُلومَ "عُلومًا شَرعِيَّة"، سَواءٌ في ذالِكَ عُلومُ اللُّغَةِ وَالعُلومُ المَبنِيَّةُ عَلى القُرءانِ وَالسُّنَّة، وَالعُلومُ ذاتُ الأصلِ الفَلسَفِيّ، كَالحِسابِ وَالمَنطِق، ما دامَت كُلُّها تَخدِمُ الشَّريعَة، خِدمَةً مُباشِرَةً أو غَيرَ مُباشِرَة. يَقول:

"هاذِهِ جُملَةُ العُلومِ الشَّرعِيَّة، الَّتي تَطمَحُ إلَيها أنظارُ الفُحولِ بِالأقطارِ المَغربِيَّة. وَهِيَ ما بَينَ وَسائِلَ وَمَقاصِد."[530]

وَلا شَكَّ عِندَنا في أنَّهُ يَعني بِالعُلومِ الوَسائِل، عُلومَ اللُّغَةِ وَالأدَب، وَالحِسابَ وَالمَنطِق، وَبِالمَقاصِد، سِوى ذالِك، مِن عُلومِ التَّفسيرِ وَالحَديثِ وَالفِقه، وَإن كانَ لا يَظهَرُ واضِحًا عِندَهُ أينَ يُصَنِّفُ عِلمَ أصولِ الفِقه، وَهَل هُوَ عِندَهُ مِنَ المَقاصِدِ أم الوَسائِل، وَلا كَيفَ يَفصِلُ عِلمَ الفِقهِ عَن عِلمِ الفَرائِض، وَيَجعَلُهُ بَينَ الحِسابِ وَالمَنطِق.

وَعلى كُلِّ حال، فَإِنَّ أبا الرَّبيع، سُليمانَ الحَوّاتَ الشَّفشاوُنيَّ، إنَّما استَعرَضَ مِنَ العُلوم، العُلومَ الأنمونَجِيَّةَ في المَغربِ الأقصى في بِدايَةِ القَرنِ الثّالِثِ عَشَرَ الهِجرِيِّ، أيِ العُلومَ "الَّتي تَطمَحُ إليها أنظارُ الفُحولِ بِالأقطارِ المَغرِبيَّةِ. وَهِيَ ما بَينَ وَسائِلَ وَمَقاصِد."[531]

وَهاذا يَعني أنَّ العُلومَ الرِّياضِيَّةَ وَالطَّبيعِيَّةَ، كانَت قَد بَلَغَت مِنَ الخُمولِ مَبلَغًا جَعَلَها نَسيًا مَنسِيًا، إلا ما نَدَرَ أو استُثنِيَ لِعِلَّةٍ. فَلا طِبٌّ وَلا هَندَسَةٌ، وَلا رِياضِيّاتِ وَلا فيزياءَ وَلا كيمياء. فَلَيسَت هاذِهِ مِن عُلومِ "الفُحول". وَهاكَذا أصابَنا الغَرب، عِندَما اقتَحَمَ عَلَينا نابُليونُ وادِيَ النّيل، وَهاكَذا بَقِيَ الأمرُ زَمَنًا طَويلاً بَعدَه.

بقية الفصــــول

باقي الفصول : 0682966022